ملكوت
كتب الإحسانَ على كلّ شيء
ملحق فصلي تصدره «الرؤية» - العدد الخامس : ذو القعدة 1439 هـ - أغسطس 2018م

«أغلق كلتا عينيك
وانظر بعينك الثالثة»

جلال الدين الرومي

لا أحسب الروح إلا أنها خلقت
من الهوى فاختفت عن عالم الصور
فلا علاج لها من أصل فطرتها
إذا أصيبت بسهم الحب عن قدر

أبو مسلم البهلاني

«إنسان»

لأجل عينيك، كان الله كان لكا
وكنت أنت لأجل الله...كيف لكا؟؟

لأجل آثامك البيضاء قد خلقت
كل الشياطين..شماعات ما انتهكا!

يا أنت يا ظمأ الصحراء يا مطرا
من الغياب ويا كل الذي هلكا!

يا سر كل وجوه الماء مذ تخذت
منك المجاذيب رغم المنتهى نسكا

يا من تشظيت باسم النار في شبه
وقلت: يكتمل المعنى إذا ارتبكا!

حتى بلغت مقام الطور: صحت هنا
هنا فأنبت خلف الغيب منزلكا

كانت يداك كنهرين ارتوت بهما
من آمنت أن هذا الكون فيك بكا

من آمنت أن طهر النيل ليس سوى
نهر تفلت سهوا من أصابعكا

من آمنت أنك الأسماء أنك من
دنى إليك، دنى سرا وعلمكا

وإذ بطوفانك الأسنى وقد نفذت
كل المشيئات طرا في مشيئتكا

وكنت تهرب نحو الله تصرخ ياااا
يارب هذا أنا نوح فأغرقكا

وقال: إنك أولى ما أردت بأن
يكون في غريقا...كيف أعصمكا؟!

كل القيامات في جنبيك مغمدة
النار نارك والخضراء جنتكا!

بين النقيضين لا وجه ولا صفة
يا حافي الوجه..قل لي: ما ملامحكا؟

زدني غيابا أنا المفقود فيك هوى
أرقى المقامات أني الآن أجهلكا

جمال الملا
jamal@malcoot.net

التزكية.. السفر إلى الداخل

أ. محمد بن موسى
باحث عُماني

تلك اللحظة، عندما تميل برأسك نحو نافذة الطائرة، لتتيقن أنك بدأت تبتعد عن الأرض، التي لا تزال تحتفظ بأسباب ألمك وحكايات معاناتك وتجاربك القاسية. ها هي لحظة الارتفاع فوق كل ذلك، والتحرر من أغلال الضيق والمحدودية، من سجن العادة وقيود الالتزامات، لحظة الانطلاق وتجاوز الحدود الضيقة إلى آفاق مفتوحة من الاحتمالات والآمال المبهجة.

إنها لحظة غسيل نفسي من بقايا الألم الذي رافق تجاربك الأرضية، ومن رماد نار الحزن وآهاته الملازمة لم يكن بيدك ما تطفئ به النار العالقة بكيانك، لكن ها أنت الآن تتمكن من الهرب بعيدا جدا عن لهيبها وحرارتها، بل ومع الوقت يغيب عنك شبحها وصورتها.

تتسلّل بعض الصور الأليمة جاهدة في التشبث بذاكرتك، متوسلة مرافقتك في رحلتك الجميلة، غير أنك لا تطيل الجدال معها، فلم يعد الوقت والحال قابلا لمثل هذه الدراما من جديد. مع الاستمرار في الارتفاع أعلى وأبعد، تأخذ تنهيدة الشعور بالفسحة والفرح، ثم تحاول الانشغال بالمتاح الممكن من الأنشطة في الطائرة، وأحبها إليك أخذ قسط من النوم يقتل ما بقي من طفيليات الأرض الفكرية.

البعض تمنعهم فرحة السفر من النوم، فيحاول التلهي بما تيسر من وسائل الترفيه أو أصناف المأكولات، وربما شيء من المحاورات الجانبية مع غيره من الفارين من الجحيم الأرضي. لا تخلو الرحلة من منغصات، من إجراءات السفر المعقدة، ومقابلة أشخاص غير ودوديين، ضيق المكان في الطائرة، وربما طول مدة الرحلة، مع بعض الإرهاق البدني وربما المشاعري أحيانا، ومهما كانت الطائرة وسيلة للهروب والتخلص من الأرض، فهي تبقى مجرد وسيلة انتقال وعبور لا مكانا للمكث والاستقرار، فليست هي مهيَّأة لذلك وليس هذا دورها.

وكلما طال الوقت تصبح الطائرة والرحلة مصدر إزعاج وضيق، تتعجل التخلص من أسره بالعودة مرة أخرى إلى الأرض التي هربت منها، وتكرر النظر في الساعة متعجلا النزول، بعد أن أرهقك البقاء في الأعلى بعيدا عن منبتك الترابي. ها هي الأرض تحتضنك من جديد، لكن في ثوب جديد غير المألوف، ربما انطلت عليك خدعة تغيير الملامح، لكن هي الأرض نفسها!

كثيرون يعدون البقعة الجديدة أرضا جديدة، ولا ندري فربما يكون الأمر كذلك، لكن حقيقة الأمر أنك قد عدت مرة أخرى لتقوم بتجربة أرضية جديدة، وطبيعي أن تكون قريبة الشبه من التجربة التي سافرت محاولا الهروب منها، فالتجارب على اختلافها تستخدم نفس وسائل الأرض وأدواتها المعهودة. لقد قضيت أياما جميلة في هذا البلد الجميل في طبيعته، والمؤنس في مهرجاناته وبرامجه السياحية الممتعة، لكنك لا تنكر أنك تعبت كثيرا من الحركة والتردد الكثير، وكونك في بلد غريب لم تألفه، مع بعض المواجهات التي عكرت صفو راحتك وأثارت ساكن انزعاجك، ولا تنس المال الكثير الذي أنفقته وتود لو انتفعت به في مشروع أو حاجة ملحة عليك، لكنك تعتبر كل ذلك ضريبة لا بد منها للمتعة والتغيير.

لقد كانت رحلتك صخبًا من نوع آخر، لكنه لا يعدو أن يكون صخبا، وتكاد تجزم أنك لم تجد السكينة التي خرجت تبحث عنها، لكنك على الأقل أحدثت تغييرا من نوع ما، وأرضيت قناعتك العقلية بما حققته من إنجاز السفر وتبديل البقعة.

أحد أسباب شعورك الجميل في السفر قدرتك المؤقتة على تحييد الأفكار السلبية المزعجة، واستعمال بديل جديد من الأفكار الإيجابية المبهجة، إنها لعبة العقل، الذي قرر أن يفرح، بعد أن اقتنع أن الظروف الخارجية هي سبب المشكلة والمعاناة، وليس شيئا آخر.

رحلت لتؤكد للعقل صدق اعتقاده، أي أنك في واقع الأمر جئت ترضي العقل وتغذيه بأفكار ليست جديدة، بل هي ما اعتاده من تصورات عن المتعة وأحكام عن الحياة وأهلها، والتي غالبا ما يكون مصدرها الأنانية وقاعدتها الذاتية، مع ميل للصراع مع الغير وحب المنافسة، ثم ها أنت -أو عقلك- تمل بسرعة، فلا تستطيع المكث والاستمرار في السفر كثيرا، ليس فقط لأن الإمكانيات المادية لا تساعدك، بل حتى حالتك النفسية لا تسمح بذلك.

لقد استوفيت حظك وقضيت نهمتك، وأي زيادة أخرى ستنقلب عكسا بالضيق والكدر والرغبة في المغادرة؛ لأن الأرض الجديدة تبدأ في الكشف عن وجه يكاد يقترب في شكله من الوجه القديم للأرض القديمة، وربما لاحظت أن الوجوه الكئيبة التي صادفتها في السفر لا تختلف كثيرا عن التي كنت تقابلها في محلتك الأولى، وها أنت تشتاق للعودة إلى ما هربت منه، وتزعم لنفسك قليلا، ولمعارفك كثيرا، أن شيئا ما قد تغير في مزاجك وأحوالك النفسية والعاطفية، لكن تدبرا واعيا وموضوعيا يكشف حقيقة أن الظروف المسببة للأحزان والواقع الحياتي البائس والأليم لا تزال كما هي، لم يتغير شيء ذو بال، والمحصلة عودة إلى الحال الأول وكأنك كنت تجتهد في السير لكن في محلك!

لقد غادرت البلد، وسافرت، وعشت خارجا ثم عُدت، لكنك ما زلت تحمل همومك معك، ما زالت العقد النفسية تلاحقك.

لقد تركت كل شيء لكنك ما زلت تُمسك بأفكارك القديمة؛ لذا فواقع الأمر أنه لم يتغير شيء حقيقي؛ لأنك أنت لم تتغير! لقد كان سبب المعاناة يرافقك في كل بقعة حللت بها، لقد كان معك في البلد الأول، وكان معك في الطائرة، وكان معك يوم سافرت ويوم عدت، فما زادك البعد عن الوطن إلا اقترابا مما كنت تهرب. مسكينة هي الأرض كم هي مظلومة، ومسكينة هي الحياة وظروفها وأحوالها، نحملها جريرة دوراتنا النفسية، ونلصق بها تهمة هي بريئة منها. أما الزمان، فلا تسل عن التهم الموجهة إليه من قديم وحديث.. ولو كان لها لسان لأجابت، ولو كان لها حقيقة شعورية لأظهرت سخطها وغضبها، لكن كل ذلك لا يوجد، إنها مجرد ظروف زمانية ومكانية تستقبل ما يضع الإنسان فيها، وهي لا تملك أن تعطيه إلا ما يمد إليه يده برغبته واختياره.

هل عرفت الآن ممن كنت تهرب؟ ألم تدرك الشخص الذي كان ولا يزال يسبب لك كل تلك المعاناة؟ نعم إنه أنت، إنه (الأنا) أو (النفس) التي تختبئ خلف الأحداث والأحكام، والتي تجد متعتها في هذه اللعبة من إثارة المشاعر وإصدار الأحكام غير الموفقة في الغالب، بل لا هم لها إلا إغراؤك بالاستمرار في لعبتها، لأن ذلك ما يكفل لها البقاء والانتصار عليك في هذه المعركة الخفية.

لقد سافرت تبحث عن سعادة وراحة بعد ألم، في الحين الذي أخذت معك سر ألمك وتعاستك رفيقا وصاحبا، وما زلت ماضيا في حساباتك الخاطئة، وما لم تتوقف عن هذه اللعبة الغبية فسوف تقضي باقي حياتك محاربا الأوهام ومكتسبا الأوهام، لا تجني من ورائها تلك الحياة التي هجرت مألوفك لتفوز بها، والآن حان وقت الراحة، آن أن تستعيد روحك المتعبة راحتها، توقف عن السفر لأنك في الحقيقة لا تسافر، أنت تغير البقعة فقط، لكنك تحمل ألمك وسوء تقديرك أينما ذهبت، لذا اترك نفسك! عندها فقط تستطيع السفر والتحليق بحرية الطيور.

يعبر عن هذه التجربة في الأدبيات الروحية بـ»تزكية النفس»، والزكاة هي الطهارة، أي التخلص مما علق بالنفس من أفكار وما ترسخ في ذاكرتها من معتقدات غربتها وأبعدتها عن حقيقتها.. إنها العودة للفطرة بالتخلي عن الفكرة..الفطرة حالة الروح، والفكرة ثرثرة العقل، الفطرة هي الصفاء الأول، والفكرة هي كدر الآراء والأفكار، والتي أكثرها خطأ وسوء فهم سبّب المعاناة وأنتج المشاكل والحروب والكروب، وعقّد الحياة.

الإنسان لا يواجه الحياة بل يواجه تصوره عن الحياة، ولا يقابل الأشياء بل يقابل أفكاره واعتقاداته عن الأشياء، هناك لوحة فكرية تحول بينه وبين الرؤية الصافية، لوحة يقرأ عليها معتقداته وتصوراته، إنها كلماته التي يحاور بها نفسه، يقول فيصدق ما يقول، ثم يتعامل وينفذ خطته الحياتية بناء على ما اعتقده وآمن به.. إنه لا يمكنه أن يرى غير ما في ذهنه من انعكاسات فكرية وظنون وهمية عن تجاربه وواقع الأمر، فما النفس إلا مجموعة أفكار لا أكثر، ولا حقيقة لها سوى ذلك، فما التمسك بها إلا تمسك بمعتقدات تقادم عهدها في الذاكرة، أو تعلق بأفكار بالية لا تتعدى كونها ظنونا ووساوس.

هناك طريقتان للتخلص من هذا الوهم الآسر والخادع، الذي يقود الإنسان لعيش حياة غير واقعية ولا مثمرة، لأنه بمثابة النائم والمخدر فكريا.. بل هو نائم حقيقة، كما قيل في الأثر: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا».

- الطريقة الأولى: أن يمسح من سبورة فكره تلك الكلمات بالكلية، أما اللوح فيزول مع ذهاب المكتوب؛ لأنه مجموع الكلمات.

ومع زوال الحجاب تنجلي الحقيقة، فلا يحتاج أن يتكلف ليرى، بل بمجرد النظر هو يشهد الحقيقة ناصعة واضحة، لأنه لم يكن يحول بينه وبينها إلا لوح معنوي وهمي قد زال.

أكثر الناس حريصون على ملء أدمغتهم بالأفكار، والتي أكثرها خيالات وأوهام، لكن الحكيم من يسعى للإطاحة بها ومحوها من عالم الوجود، لأنها هي ما يحول بينه وبين الواقع الحقي، إنها ليست أكثر من سحاب يستر شمس الحقيقة.

إنَّ السعي للتحقق بالصفاء الفكري والشفاء العقلي تجربة روحية جديرة بالبحث والحرص، وهي تجربة لها وسائلها وطرقها التي يمكن تعلمها وممارستها على أيدي عارفين وخبراء سلكوا الطريق وأتقنوه، ثم عادوا هادين ومرشدين لغيرهم من الطالبين وعطشى الروح.

وبهذه التجربة، يصل الإنسان إلى عُمقه النوراني؛ حيث تسكن السكينة وتقيم الطمأنينة وتخيم القداسة والطهارة، حيث الفطرة الأولى النقية والصافية، بعيدا عن لوثة الأفكار وإزعاج الآراء والاختلافات، بل وحدة وانسجام، وصفاء لا كدر فيه، ولا فكرة تشوه الفطرة، هناك حيث تحيط جلالة الهدوء وسكينة الروح كيان الإنسان حامية له من جهالات الفكر وضلالات الأهواء.

وما أحوجنا لهذا الصمت والهدوء الباطني، ما أحوجنا لإيقاف هذا الهدير المزعج من الأفكار، والضجيج الداخلي من صراعات العقل ومعاركه التي لا تهدأ، وتلك الأفكار المتزاحمة كجيش لا هم له إلا إزعاج الروح، كما يزعج جيش الجراد الحقل الأخضر.

وهذه الطريقة أقوى وأبلغ في الأثر والنتيجة، لكن إن عجز عنها فلا أقل من التمسك بالطريقة الثانية، وهي أن يستعمل الأفكار الإيجابية بدلا من السلبية، ويجتهد في تخير الكلمات وتحسين العبارات وتلطيف التصورات، ويتكلف صرف الذهن عن السوء في اللفظ والأفعال.

وهذه الثانية طريقة أهل الإيمان، والأولى طريقة أهل الإحسان، وكلاهما طريق شريف، وإن كان أحدهما أشرف وأكثر إشراقا وأكبر عائدا.

وفي الواقع، فإن العقل لا يكف التفكير بالمطلق، لكن عندما يتزكى بالسلوك الروحي تصبح أفكاره ربانية إحسانية، منبعها النور، وطريقها الحب، ومقصدها المصلحة الإنسانية العامة.

النفس لا تزكو إلا بربها فبه تشرف وتعظم في ذاتها لأن الزكاة ربو فمن كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه والصورة في الشاهد صورة خلق فقد زكت نفس من هذا نعته وربت وأنبتت من كل زوج بهيج كالأسماء الإلهية لله والخلق كله بهذا النعت في نفس الأمر ولولا أنه هكذا في نفس الأمر ما صح لصورة الخلق ظهور ولا وجود ولذلك **(قَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)** لأنه جهل ذلك فتخيل أنه دسها في هذا النعت وما علم إن هذا النعت لنفسه نعت ذاتي لا ينفك عنه يستحيل زواله لذلك وصفه بالخيبة حيث لم يعلم هذا ولذلك قال (قَدْ أَفْلَحَ)ففرض له البقاء والبقاء ليس إلا لله أو لما كان عند الله وما ثم إلا الله أو ما هو عنده، فخزائنه غير نافدة فليس إلا صور تعقب صورا والعلم بها يسترسل عليها استرسالا بقوله (حتى نعلم) مع علمه بها قبل تفصيلها، فلو علمها مفصلة في حال إجمالها ما علمها فإنها مجملة، والعلم لا يكون علما حتى يكون تعلقه بما هو المعلوم عليه، فإن المعلوم هو الذي يعطيه بذاته العلم، والمعلوم هنا غير مفصل فلا يعلمه إلا غير مفصل إلا أنه يعلم التفصيل في الإجمال، ومثل هذا لا يدل على أن المجمل مفصل إنما يدل على أنه يقبل التفصيل إذا فصل بالفعل هذا معنى (حتى نعلم) وإذا كان الأمر كما ذكرناه فما ثم (من دساها) ولو كان ثم لكان هو الموصوف بالخيبة لأن الشئ لا يمكن أن ينجعل ولا يندس في غير قابل لاندساسه.

وإذا دسه فقد قبله ذلك القابل وإذا قبله فما تعدى ذلك المدسوس رتبته لأنه حل في موضعه واستقر في مكانه، فما خاب من دسه الخيبة المفهومة من الحرمان فله العلم وما له نيل الغرض فحرمانه عدم نيل غرضه فإن العلم ما هو محبوب لكل أحد ولو كان العلم محبوبا لكل أحد ما قال من قال إن العلم حجاب والحجاب عن الخير تنفر منه الطباع، ونحن إذا قلنا العلم حجاب فإنما نعني به يحجب عن الجهل فإن الوجود والعدم لا يجتمعان أعني النفي والإثبات فما يخيب إلا أصحاب الأغراض وهم الأشقياء، فمن لا غرض له لا خيبة له وأنت تعلم أنه إذا دس شئ في شئ إن لم يسعه فلا يندس فيه وإن اندس فقد وسعه ولا يسعه إلا ما هو له فلكل دار أهل، وما ثم في الآخرة إلا داران جنة ولها أهل وهم الموحدون بأي وجه وحدوا وهم الذين زكوا نفوسهم، والدار الثانية النار ولها أهل وهم الذين لم يوحدوا الله وهم الداسون أنفسهم فخابوا لا بالنظر إلى دارهم ولكن بالنظر إلى الدار الأخرى، فكما أنه لم يتعد أحد هنا ما قُدّر له وما أعطته نشأته الخاصة به كذلك لم يتعد هنالك ما قُدّر له موطنه الذي هو معين لذلك الذي قدر له، فمن خلق للنعيم فسييسره لليسرى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) ومن خلق للجحيم فسييسره للعسرى (وأما من بخل) بنفسه على ربه حيث طلب منه قلبه ليتخذه بيتا له بالإيمان أو التوحيد (واستغنى) بنفسه عن ربه في زعمه (وكذب بالحسنى) وهي أحكام الأسماء الحسنى (فنيسره للعسرى) فهذا تيسير التعسير وهو يشبع الدس، فإن الدس يؤذن بالعسر لا بالسهولة، فلو جهد أحد أن يدخل فيما لا يسعه ما يمكن له ذلك جملة واحدة وما كلف الله نفسا إلا وسعها في نفس الأمر، ولذلك وسعت رحمته كل شيء وزال الغضب وارتفع حكمه وتعينت المراتب وبانت المذاهب..

محي الدين ابن عربي

الباب الثالث والثمانون وأربعمائة – الفتوحات المكية

الإخلاء أولاً..ثم الامتلاء!

محمد بن رضا اللواتي
كاتب عُماني

يقولون أن «الزكاة» جذرها من «زكا»، أي نما وصلُح. والنمو ازدياد قد يتعلق بالمال فيكون كثيرا، وقد يتعلق بالعُمر فيغدو مديدا، وقد يتعلق بالعلم فيصبح غزيرا، ولكن ليس بالضرورة أن ترافق الحالات المارة من النمو «صلاحا»، إلا في حالة واحدة وهي، نمو «الذات» معنويا أولا وبالخُلق الحسن، عندها فحسب يسري الصلاح في بقية أشكال النمو.

لقد كان الحُكماء يعتقدون بأنّ علاقة النفس بالمعنويات من أخلاق وفضائل ومعارف، هي علاقة الكتابة بالسبورة البيضاء. ففي الأصل، كل النفوس بيضاء خالية من المكتسبات الخلقية والعلمية، لكنها لاحقا وبعد الاكتساب، تغدو «تتصف» بتلك الفضائل والعلوم، كما لو كانت السبورة البيضاء خالية من الكتابات، ثم ولاحقا تتناثر عليها الكلمات والرسوم.

هذه الكلمات والرسوم من الممكن محوها لأنها ليست جزءا لا يتجزأ من السبورة، وهكذا فإن الأخلاق والفضائل والمعارف تقبل أن تُمحى عن صفحة النفس. فالعلاقة إذن ووفق هذه الرؤية بين المكتسبات النفسية والنفس ليست أصيلة، بل عارضة.

ولكن «صدر المتألهين» أطاح بهذه الرؤية عند اكتشافه لنظرية «إتحاد العاقل والمعقول»، فبموجبها، علاقة المكتسبات النفسية بالنفس علاقة حميمة ووطيدة بحيث أن هذه المكتسبات تغدو «عين» النفس وتُصهر فيها بالنحو الذي لا يمكن تصور النفس إلا بها! العلاقة بناء على إتحاد العاقل والمعقول، بين معارفنا وأخلاقنا وبين أنفسنا هي كعلاقة «الطوب» بالجدار. الجدار يتألف من الطوب، هكذا النفس تتألف من مكتسباتها النفسية، ولن يسعها في أية منزلة من منازل سيرها إلى «الله» أن تفارق مكتسباتها تلك أبدا.

ومعنى ذلك، أن سائر أخلاقنا ومعارفنا ليست إلا النفس حقيقة. ليست هنالك ذات يعرض عليها العلم، وتتصف بالأخلاق، كلا، وإنما هنالك ذات، تتحول إلى مكتسباتها. لا ثمة فارق بين النفس وبين أخلاقها، على الإطلاق. وعليه، فعندما نقول: صار الجسم أبيضاً، فإن الصيرورة هنا ليست حقيقية، لأن الجسم يظل محتفظاً بكيانه واستقلاله عن البياض، وهكذا البياض أيضاً. ولكن، عندما نقول: صارت النطفة إنساناً، هنا، الصيرورة حقيقية، لأنها أفقدت النطفة كيانها، وسلبته إياها تماماً، إذ غدت النطفة عبر الصيرورة، إنساناً. هكذا، فالنفس عندما تكتسب خُلقا أو تنال معرفة، هذا الخُلق وذاك العلم يقوم بصيرورة النفس عين مكتسباتها تلك.

بالإضافة إلى العديد من الآيات والروايات التي ساقها «صدر المتألهين»، فقد قدم كذلك عدة براهين محكمة على نظريته، ولكن غرض هذه المقالة الاشارة إلى «نمو» النفس، وليس تقديم البراهين. تغدو النفس، طبقا لهذه الرؤية، تتسع وتنمو بشكل مضطرد بناء على مكتسباتها، من هُنا، فقد عنى «العرفاء» بشكل خاص بموضوع نمو النفس هذه، وقدموا مجموعة من المقترحات حتى لا تتملئ بما لن يُضفي في ميزان سعادتها وزن يُعتد به! فعندما يقع «وإليه تقلبون» ويتحقق «إليه راجعون»، و»وإن إلى ربك الرُجعى»، يكون وزن النفس «مكتسابتها» التي أتت بها من «مزرعة الأولى»، فمن الضروري، والحال هذا، أن تنظر وتعيد تصفية حياتها المعنوية.

يقترح العرفاء تقديم «التصفية» و «الإخلاء» أولا، ومعناه البحث في أعماق النفس عن رذائل الأخلاق لأجل اقتلاع جذورها تدريجيا، وفي الخطوة الثانية تأتي «التحلية» أو «الامتلاء»، والمقصود به تأصيل بُعد الفضيلة والأخلاق الحميدة التي تتسق مع قاعدة «التوحيد».

فلو كان بين أيدينا كأس من ماء ولكن به شائبة نعجز بوجودها فيه عن شربه، فمهما ملأناه بماء نظيف، لن يتسنى أبدا شربه إلا بإخراج الشائبة أولا، وعند ذلك فحسب، يمكن ملؤه مجددا بالماء النقي.

ويقترح «العرفاء» لأجل التصفية ثلاثة طُرق يمكن اتباعها لظهور النتائج، الأولى هي التفكر في عاقبة الحال إن مرقت النفس من عالم المادة وانتقلت إلى العالم الأخروي، وهي قد اتحدت برذائل الأخلاق التي صارت حياتها وفق قاعدة إتحاد العاقل والمعقول، تُرى كيف يكون مصيرها، لا سيما وأن إجراء التغيير في العالم الأخروي غير ممكن أبدا، لذلك ينقل الكتاب المجيد أن جماعة تطلب العودة إلى الوراء «حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت» لأنها أدركت أن التغيير والتملص مما في النفس من أخلاق ومعارف ومكتسبات غير متاح بالمرة في ذلك العالم.

الطريق الثاني المقترح من قبلهم هو التفكر في مآل السعيد في النشأة الثانية، والموعود بالحياة الطيبة، فلعل ذلك يدفع المرء إلى إعادة النظر في أحواله بغية تصفية غير المرغوب وتحليته بالمطلوب وإن لم يكن مرغوبا.

أما الطريق الثالث، فهو طريق المحبة، ويسمونها بطريق «الرفع» وليس «الدفع».

«فالدفع» في مصطلحاتهم معناه الضغط على رذائل الأخلاق لاخراجها من مملكة النفس وطردها خارجا، وثم الضغط على فضائل الأخلاق لابقائها في أعماق النفس.

أما «الرفع»، فمعناه رفع كل القذارات الخلقية دفعة واحدة، ذلك باكتشاف منبع الجمال والجلال، فالنفس من طبعها عشق الجمال فكيف بالجمال اللانهائي، هذا إن اكتشفته حقا؟ سوف تجد النفس أنها متجهة بتمامها ومنجذبة نحوه بحركة «حُبية» تسري في تمام كيانها، عندها ترتفع غير المرغوبات جملة واحدة وتضمحل بالمرة.

ويبقى السؤال الأصعب: كيف يتسنى إكتشاف الجمال الإطلاقي بين آلاف من الحُجب الغليظة التي تستر وجهه ما لم يتم خرقها كلها فتضيء الحياة الباطنية بنور بهي يجذبنا إلى أفق لا ظُلمة فيه؟

من عرفَ نفسَهُ
عرفَ ربّه

مذكرات في التوحيد
معرفة الوجود (2-2)

د. محمد عبد الرب النظاري
مفكر يمني

كما يظهر الماء من الأرض بكثرة الحفر يصير شعور قلب الإنسان أنه حسّاً ومعنى قد أصبح سبورة لحروف ذلك الاسم الأعظم، لأنه العهد الذي خرج عليه من عالم الذر؛ وذلك أن اسم الله الأعظم بلفظ عربي مبين كما تقدم، يعد مكتوبًا في ظاهر غرة كل الحيوانات يقرؤه كل من يراه بعين البصيرة، حتى يكون البصر تابعاً للبصيرة، وسننية ذلك ظاهرة مهيمنة باهرة وهي أن العالم علامة على مولاه الواجب الوجود المحض الذي لا شريك له، وبذلك تنتهي أحكام الغفلة التي توجب الضنك كما قال عنها سبحانه: **{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}**، ولو لم يكن هذا الاسم مكتوباً بيد العناية على كل ذرة وغرة فلا يمكن أن يكتبه العبد بيده ومداده ثم يمحوه ويمزقه، بل إن مقتضى السنن أن بين الإنسان وبين الاسم الإلهي أكمل علاقة روحية يقينية واضحة كل الوضوح وليست خفية وهي لا تنفك مهما انفكت أحكام الحس بسبب الغفلة والنسيان لأن ما بالذات لا يتخلف.

ولكن اليقين السنني الذي له برهانه في القلب إنما تشهده البصائر التامة شهودا تاما وهو أن هذا الاسم هو الحقيقة الكبرى القانونية اليقينية والشهودية والسننية التي لا انفصام لها مطلقا أما المداد الذي كتبت به أحرف الاسم فإنه طلا فإن محاه الإنسان فإنما يمحو وهمه؛ وذلك أن حقائق الحق لائحة على الخليقة كما لاحت على كل غرة لأنها ثابتة ثبوت الحقائق وليست منفعلة بيد الحوادث.

لذلك لا بد للإنسان في كل نفس في حياته من تكرار الاسم المفرد (الله) الذي يعد صورة هيكله وصوت نفَسه؛ هذا باعتباره مظهرا، ولكي يكون شاعرا بكونه صورة لتجليات أنوار علم المسمى فلا بد من الذكر المقصود المستشعر استصحاب النية بالشعور الرباني بأنه عدم قد ظهر عن الاسم حساً وكذا عن تسبيحه بالأنفاس وأنه صورة معنوية لتجلي أخلاق الله بالمهيمن الشهيد حيث تجلت رحمته بإظهار الأشياء من العدم المحض إلى العدم الإضافي، ثم جعل المنافسة من رحمته فبها تتراحم الخلائق بالأمومة حتى أن الفرس وبقية الحيوانات لترفع حافرها عن وليدها رحمة به كما جاء في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام (إن الله جعل الرحمة تسعة وتسعين فأنزل رحمة واحدة فبها تتراحم المخلوقات حتى أن الفرس لترفع حافرها عن وليدها) وهذا مطرد في رحيم وكريم وغفور وغيرها من صفات الفضائل فإن من اعتمد على الوسائل من ذكر وغيره أصبح متخلقاً بهذه الأخلاق لكن مع الخلوة وقلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام وقلة مخالطة الأغيار وذلك لشهوده اليقيني أن ما يراه من الأشياء إنما هي آثار من عالم الأمر تنزلت باسمه القدير عن اسمه العليم باعتبارها مقدرات عن مطلق المعلومات، حتى يطمئن قلبه إلى الله وحتى يصير (الحقُّ) سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وجميع شؤونه كما جاء في الحديث:(وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه...) وغير ذلك من الأحاديث.

حكم الكمال هو اليقين بتجليات الله:

أولاً: تقرر أن الوجود المحض مطلقاً من غير شريك إنما هو الله الأحد الذي له تجليان، التجلي الأول الأحدية؛ وهو الوجود المحض الذي لا شريك له في وجوده؛ وذلك قبل ظهور فعل الله في المخلوقات، التي أظهرها من اسمه العليم من العدم الإضافي باسمه القدير، وكلها أحكام نسبية تظهر في عرض مرآة الكائنات عن حضرة غيب الغيب الوجودي، إلى حضرة العدم وهو القابلية العلمية.

لأن الله يتجلى بذاته لذاته بغير شريك ولا اسم ولا صفه ولا معنى من المعاني المضافة إلى الله من القهر في الألوهية والرحمانية والخالقية أو غيرها ولذلك فإنه لا يعلم له شريكاً أزلاً وأبداً، وإنما يدرك العبد النسبي الحقائق بما يضاف إلى الله من مناسبات، مع الأذن السنني للعبد أن يصف الله على قدر العبد، وليس على قدر الله عز وجل وذلك في تفصيل الصمدية.

وهذه الأحكام لمظاهر الصمدية، وقبلها أحدية تمنع أي مناسبة بين الله وخلقه ومن باب أولى ما قبل الأحدية.

وليس قبل الأحدية إلا «الساذجية العماء المطلق» الذي ليس فوقه هواء ولا تحته هواء وغيب الأحدية

مكانة لا مناسبة بينها وبين الخلق مطلقاً كما قال عندما سئل أين كان ربنا قال: (كان في عماء ليس تحته هواء وليس فوقه هواء أو كما قال).

وهذا الوجود المحض لا يقبل تجلٍ بالظهور ولكن المناسب للأرواح والقلوب معرفة تجلي الأحدية وإن كان هذا التجلي هو تجلي ذاته لذاته بحيث لا يقبل تعيين رتبه ولا أثر.

والنظم القرآني قد نبّه الناس وأرشدهم أن الله في ذاته أحد وفي صفاته صمد وأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

ولو أنَّ الخلق أدركوا هذه الرتبة لعرفوا تنزه الله عن الاحتياج للتنزيه وتقدسه عن الاحتياج للتقديس؛ لأنها مرتبة أحدية الله من غير اسم ولا صفة ولا أثر لأي صفة فلا يقبل إضافة اسم أو فعل للأحدية.

وإنما يضاف ما ورد بصحيح القرآن والسنة إلى الصمدية إما بطريق نفي الأضداد كالأحكام العقلية بأن يقال واحد ليس بمتعدد وكريم ليس ببخيل وعليم ليس بجاهل أو بطريق معرفة الروح والبصيرة التي يتجلى بها الحق بأنواره للصفات التي تتنزل آثارها إلى البصيرة التامة ليتعرف الإنسان على الحق الواجب الوجود بيقين لا يقبل المزيد ويليق بالعبد من حيث مكانته المتزايدة ولكنه لا يقدر الله حق قدره مهما علت رتبة العبد وإن كان نبياً.

التجلي الثاني: للوجود تنزل الصمدية.

وهو تفصيل يلي الأحدية بالرتبة وليس بمهلة زمنية ولا مكانية.

لأن الصمدية صفة لا وجود فيها إلا لله وفيها ظهور الأسماء التي تشرح الصمدية أو الأوصاف التي تبين عظمة الصمدية ولها تعلقان بعضها يتعلق بالله جلالا كالكبير والعظيم والمجيد والحميد.

وبعضها يتعلق بفعله كالرب والملك والخالق ويجمع الأولى اسم الله.

ويجمع الثانية اسم الرحمن كما جاء في القرآن الكريم: (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى).

فالأولى باسم الله تتعلق بالأحدية في القدم.

والثانية باسم الرحمن تتعلق بالصفات الفاعلة، لإظهار الحوادث الجائزة لتستمر آثاراً لأعراض لا تبقى زمانين.

الحصر في الأحدية والصمدية:

إنما وردت كلمة صفة في النظم القرآني في سبع آيات (سبحان الله عما يصفون)، (وسبحان ربك رب العزة عما يصفون) وغيرها من الآيات السبع ولكن كلمة يصفون في هذا السياق ليس فيها دلالة أن لله صفات، ولكن معناها سبحان الله عمّ يكذبون، وإنما يوجد الإشعار بإثبات الصفات في سورة الإخلاص حصراً كما جاء في السيرة وفي الصحيح.

نظم سورة الإخلاص:

تحقيق المرتبتين كما جاء في السيرة أن قريشاً طلبوا من

> **لا بد للإنسان في كل نفس في حياته من تكرار الاسم المفرد الله) الذي يعد صورة هيكله وصوت نفسه**

رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن يصف لهم ربه فأنزل الله سبحانه وتعالى لبيان جلال الله (قل هو الله أحد) فهو سبحانه له مطلق الأحدية التي شأنها كمال الجلال والانفراد بالوجود قدما وبقاءً.

وله صفة الصمدية في الإيجاب، (الله الصمد) فله سبحانه بها مطلق الكمال والهيمنة.

ولقد اشتملت هذه السورة المباركة على سلب النقائص بوصفها لله سبحانه وتعالى أنه أحد صمد وأنه (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد).

ويؤيد ذلك ما جاء في صحيح مسلم: أن أنصارياً كان يصلي في جميع الصلوات الجهرية بسورة (قل هو الله أحد).

فشكاه الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (رسول الله» ص» ما حملك على ذلك) فقال: هذه السورة فيها صفة ربي وإني أحبها فقال: صلى الله عليه وسلم: أحبك الله؛ فأقره الرسول «ص» على هذا ذلك.

فتبين من هذا أنه في الإثبات أحد ليس لسوى أحديته الذاتية المطلقة سبحانه وجوداً ولا شأن في أحكامها.

ثم تنزلت أحكام الأحدية وهي غيب محض إلى الصمدية وهي رتبة ليس لسوى أحكامها صورة وجود ولا فعل؛ لأن الصمد هو الذي تفرد بالصمود مهيمنا ومحيطاً بكل مقدور أو صمد كل مقدور إليه ليستمد منه مظهريته.

والحصر اليقيني للوجود يقسمه إلى ثلاثة:

الوجود الحقيقي: ولا يكون إلا لله بلا شريك.

الوجود الخارجي: أو المظهرية للمخلوقات التي تشهدها الحواس الخمس في الملك والملكوت وليس وجودا وإنما هي مظاهر تمر مرور السحاب لمعروضات إنما نرى صوراً عنها.

الوجود الذهني: وهو للمعاني التي تتعلق بالأحكام البدائلية كالقدرة والمروءة والمحبة وغيرها من المعاني.

الخلاصة مما تقدم: أن الأحدية توجب أن لا يكون له شريك في الوجود مطلقا وهذا هو منهاج أهل الإحسان واليقين والشهود من الأنبياء و الأولياء الذين يستيقنون بأحدية الله بلا شريك في الوجود، ويستيقنون أن هذا الدين روح ونور وغيب وأنه لا يصح في التربية الروحية والقلبية والفكرية أن يتعامل إلا مع التربية الاحسانية بالأرواح على كمال الشهود أو الذوق ؛لأن ما انزله الله هو روح

من أمره وليس قراطيس يخفيها البشر متى شاءوا ويبدونها متى أرادوا.
ويستيقنون أن الصمدية توجب إلا يكون له شريك في الظهور الحقيقي بل هو المتفرد بأحكام الجلال في أحديته والجمال في صمديته والكمال في ربوبيته ولطفه و ذلك لأنه سبحانه وتعالى الموصوف بالهيمنة؛ لأنه المهيمن الشهيد، وأنه الأول والأخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم.
ثم يأتي النفي والسلب في سورة الإخلاص بأنه «لم يلد» سواه «ولم يولد» من سواه وإنما أظهر صورة رحمانيته في استوائه ونفى ما عداه لأن الظهور على العرش هيمنة من رحمانيته كما قال يحيى بن معاذ الرازي: معنى استوى أثبت نفسه ونفى سواه.
والمعنى أنه مهيمن قاهر ظاهر بالاستواء فحيث يكون سبحانه قريبا يكون رقيبا ويكون شهيدا ومهيمنا إلى أخر الصفات، بحيث لا يمكن إن يكون هناك وجود للذرة التي يتكون منها النسبي وتدور حول قطرها من نفسها وإنما هي مظهر نوراني للهيولا التي وجودها فرضي كالهباء في الفضاء الرحيب نؤمن ونجزم بان لها ظهورا موضوعيا على سبيل الفرض والتقدير ولا تقبل المظاهر منها إلا آثارها، لتتكون منها الذرات إلى المجرات، وهو ظهور حكمي ذهني لا ذاتي؛ لأنه نسبي والنسبي في ذاته عدم؛ لافتقاره إلى نسبة وناسب ومنسوب إليه من مطلق الظهور.
فالهيمنة على الذرات الظاهرة باعتبارها أقل درجات الظهور وباعتبارها مظاهر لجميع المعروشات، وهو مجموع العرش الذي يكون الأمر فيه مهيمنا على ذرات الخلق العدمية وهذه الهيمنة إنما تكون لواجب الوجود ولو تصورنا أن أي ذرة فيها الخلق دون الأمر لكان كفرانا خاليا من التوحيد بين الخلق والأمر.
والموقف اليقيني أنه لا يجوز للمسلم أن يعتقد أن هناك ذرة يكون الفاعل فيها غير الله ولو اعتقد ذلك لوجب عليه أن يتوب، وأقل مظاهر التوبة العملية هي كثرة الأذكار بحثا عن اليقين القلبي لأن علوم الغيب لا تؤخذ إلا من الروح بواسطة الأذكار ومجالسة أهل الشهود والإحسان؛ وإلا فيكون بذلك السلوك معاديا للسنن إذ **(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)** وذلك لنظام التغالب بين الآلهة على فرض المحال.

ثانيا: أنه لم يولد من سواه بل كان هو الوجود الحقيقي الواجب الذي له مطلق الوجود ولغيره باعتباره مستحيلا العدم المحض من نفسه، وللجائز العدم الإضافي بالظهور الذهني والخارجي و لولا ترجيح الحق له ما حظي بالمظهرية الخارجية أو الإحساس الذهني من الأشياء فإنه يفتقر للمرجح فلو كان ترجيحه من نفسه لصار شريكاً لله، ولو كان المرجح مساوياً له لكان ذلك المساوي شريكاً لله.
الخلاصة اليقينية السننية:
أن الذي له الوجود المحض بالأحدية هو الحق المهيمن الشهيد الذي شأنه أنه لم يلد ولم يولد سلبا للأغيار مطلقا من مؤثر أو متأثر بحيث يستحيل أي تأثير بغير واسطة عالم الأمر. وشأنه الذاتي أنه لا يكافؤه سواه في شيء مطلقاً مهما قل ذلك الشيء ولو لم تكن واسطة الأمر السننية لكان كل شيء يساويه وهذا محال من جميع الوجوه التي لا حصر لها.
والمراد: هل للوجود شريك من غيره أو هل له غياب في غيره؟! وهذا كله محال سنني، وقد يفرضه الذهن جدلا لأن الذهن يفرض المحال ولكن ذالك كله بسبب الغفلة التي تستولي بقوة الأوهام على أحكام الحواس أو على أحكام العقل في أنماطه النسبية التي يكون من لوازمها أن تحارب أحكام اليقين في القلوب فلو لم نتيقن بأحكام قلبية وأحكام روحية شهودية صادرة عن نفخة الله من روحه الذي هو فينا سلطان عالم الأمر ولو لم نستيقن أن الله هو الوجوب المحض لحصلت الاختلالات التالية:
١- أن يكون الوجود الواجب مشابهاً للمخلوق في التركيب من الأجزاء.
٢- أن يكون الوجود مفتقرا إلى المكان كافتقار غيره من المخلوقات.
٣- أن يكون أصغر من غيره وخاصة أصغر مما يحتاج إليه ليكون ظرفا يحل فيه.
٤- لا يقبل العقل ترجيحه إلهاً على غيره بغير مرجح ما دام مساوياً لغيره في الموجودية فمن الذي رجحه ليكون إلها؟ ولماذا؟!! وأين وكيف ومتى وحتى متى يبقى الجهل والإلحاد هو السائد إعلاميا يشقشق بالأباطيل والأراجيف المتجاهلة التي يكفّر بموجبها أهل اليقين، سبحانك هذا جهل بسنن الكمال في الحياة!
أما الله فلا يضره شيءٌ عدمي لأنه قد أذن للخلق أن يصِفوه بقدر وسعهم وليس في إمكان البشر أن يصفوه على قدره سبحانه وبناء على ذلك بقي الجهل والإلحاد هو السائد إعلاميا يكفّرُ بموجبه أهل اليقين مع أن الخلق جميعا إذن الله لهم أن يتوجهوا إليه على قدرهم وليس على قدره لأنهم لن يقدروه حق قدره مهما أوتوا من قوة كما قال: العارف بالله أبو الحسن الشاذلي: (إنما هي ألفاظ وأعراض أذنتَ لنا أن نصفك على قدرنا لا على قدرك).
تبين مما تقدم: أن الوجوب إنما هو لله الأحد الصمد الشهيد المهيمن الحي القيوم الواحد الحق الذي له مقاليد السموات والأرض من غير شريك في الوجود ولا في الظهور ولكن لعلمه وقدرته مظاهر نسبية في نفسها عدم يتم ترجيحها بكمال عزة الله وهيمنته وإبدائه لإحكامه وإعادته لها باسميه المبديء والمعيد وأنه فعال لما يريد ولو رجحت هبائة من ذاتها أو من مساوٍ لها لكانت هي أو مساويها يستحقان

شراكه الله في الوجود من ذاتهما ولكان ذالك فرض للمحال واختل كل شيء في الحياة بل هو المتصرف المنفرد بالتأثير ولو شاء لرجح غيره من الأشياء الجائزة الذهنية أو الخارجية التي ليس لها أدنى حضور في أصل الوجود وإنما هي التحرك للنسبي والعدمي الإضافي في تشكيل ظهور مرايا العوالم بمعنى مظهريتها بترجيح واجب الوجود ولو ترجحت من ذاتها لكانت شريكة لله سبحانه.

وبهذا يظهر الجهل والخلط لدى كثير من الناس حيث لا يفرقون بين الوجود الحقيقي لله لا شريك له وما هو من سبحات نور وجهه من عالم الأمر والروح الواجب. وبين ما هو حادث من مظاهر الخلق النسبي العدمي التي تعد مظاهر ذهنية عدمية لآثار أسماء الله وصفاته، كما قال الحق سبحانه عن هذا النوع من المشركين الذين يتوهمون أن لله شريكا في الوجود أو أن لصفاته شريكا في الظهور: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ}، ولو عقلوا وذكروه ذكرا كثيرا للبحث عن نفخة الله فيهم لعلموا بعين البصيرة اليقينية أن ظهور العوالم في مرآة الوجود علامه لمولاهم؛ كأثر لوحدانية الصفات والأفعال وهو كظهور أي شيء في المرآة والشاشة المرئية ؛ وذلك لأن المظاهر إنما يكون ظهورها عن هيمنة المؤثر فلا يمكن للعقول أن تتصور ربا بغير مربوب ولا مربوبا بغير رب ولا خالقا بغير مخلوق ولا مخلوقا بغير خالق ولكنها كما نرى المرآة تحمل كل شيء وليس فيها شيء سواها وكذلك الشاشة تعرض جميع الأشياء وليس فيها شيء سواها وإنما هي عرض في عرض للنسبي الذي يعد عدما في ذاته فكل ذرة فيها مخلوق ففيها هيمنة الخالق لا ينفك عنها بحيث لا وجود لكل ذرة إلا بجميع الأسماء الفاعلة بوصفه سبحانه قريباً رقيباً مهيمناً فعّالاً لما يريد؛ منفردا بالتأثير بالمهيمن لأنه قهر واستوى بالمهيمن الشهيد الذي هو على كل شيء قدير تدبيراً وتأثيراً وإظهاراً بالمبديء والمعيد الغفور الودود الذي هو فعال لما يريد . تستحيل شراكة غيره في التأثير والبرهان على ذلك بأمرين:

الأمر الأول: أنه لو وجد غير الله وجوداً ذاتياً لم يجد العقل إلى ترجيح أحد الموجودين للألوهية سبيلاً لأنه سيكون ترجيحا من غير مرجح.

الأمر الثاني: أن نظام التغالب بعلو بعضهم على بعض يقتضي فساد العوالم إذ {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} ، والواقع أنه لم يحصل الفساد وبرهان ذلك المشاهدة فوجب أن يكون الله أحدا منفردا بالجلال والجمال والكمال لا يشاركه شيء وإنما بنور هيمنته يظهر سبحانه المظاهر العدمية الإضافية النسبية من اسمه العليم باسمه القدير.

قال الله تعالى: **(خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وإن الله قد أحاط بكل شيء علما)**.

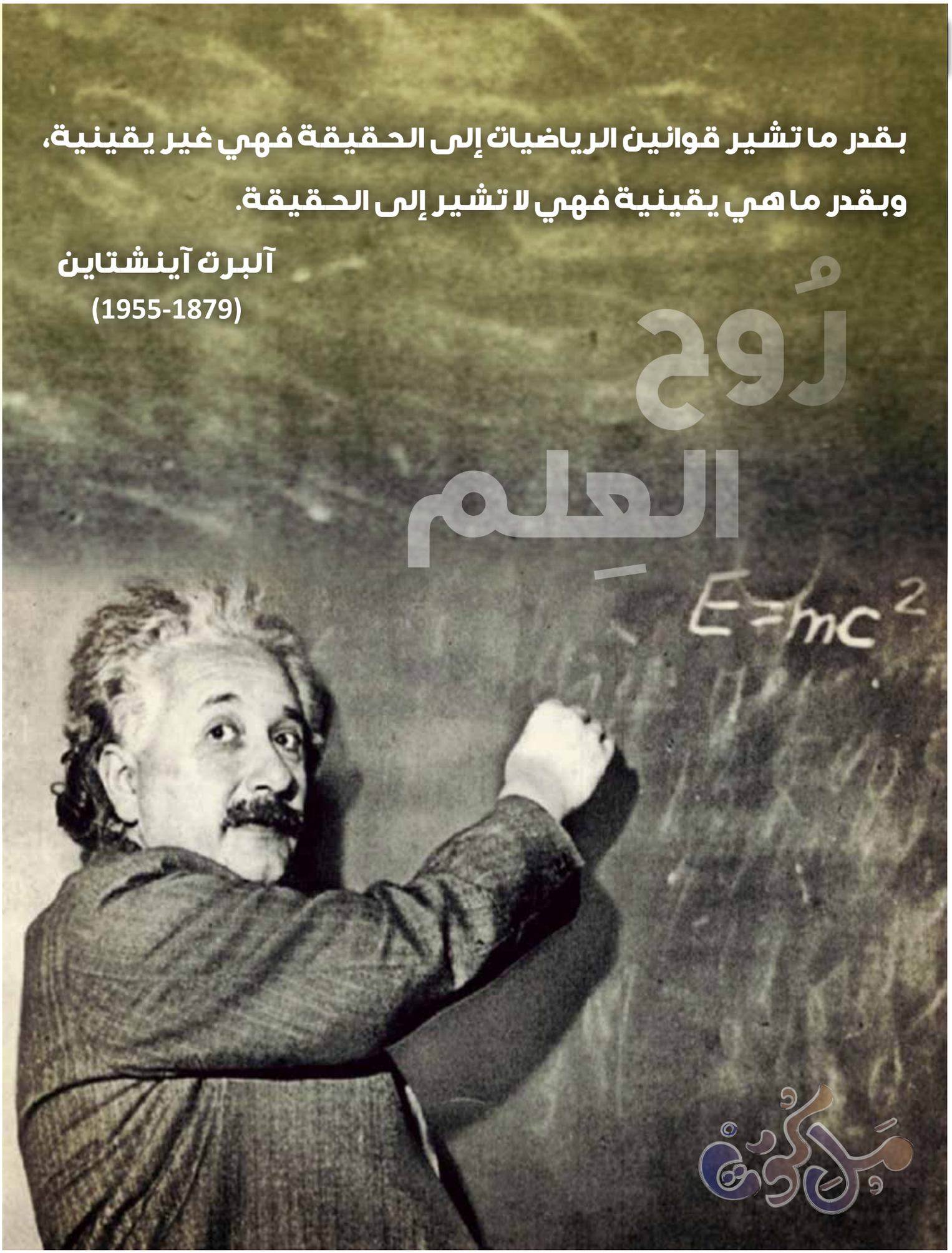

بقدر ما تشير قوانين الرياضيات إلى الحقيقة فهي غير يقينية،
وبقدر ما هي يقينية فهي لا تشير إلى الحقيقة.
ألبرت آينشتاين
(1955-1879)
رُوح
العِلم
E=mc²

الأكوان المتوازية

اتاريخياً، لم تكن أول نظرية أو فكرة للأكوان المتعددة قادمة من علم الكون نفسه، بل كانت إحدى تفسيرات ميكانيكا الكم الغريبة. والسبب طبعاً يعود إلى مبدأ هايزنبيرغ الارتيابي الذي يجعل الذرة أو الإلكترون الذي يدور حول نواة الذرة في حالة كبيرة من عدم اليقين. تصور أنك تلعب بلياردو؛ عندما تضرب الكرة البيضاء بأحد الكرات الملونة الموجودة على الطاولة، سيكون لديك فكرة مبدئية عن كيفية تحرك الكرات بعد الاصطدام. فلو ضربتَ الكرة البيضاء رأساً على أحد الكرات الثابتة، فلابد أن تتحرك الكرة المضروبة إلى الوراء، أو عندما تضرب الكرة بزاوية معينة، متظاهراً بأنك محترف، سيكون لديك فكرة عن كيفية تحرك الكرة المضروبة بزاوية معينة. سبب قدرتك على التنبؤ بحركات الكرات بعد التصادم هو أنّ مبدأ هايزبيرغ لا ينطبق على تلك الكرات. فأنت في عالم كلاسيكي تنطبق عليه ميكانيكا نيوتن الكلاسيكية وليس ميكانيكا الكم. الآن، سنقوم بتصغيركم بلايين المرات حتى تصبح أنت وكرات البلياردو بحجم الذرات. الآن أرني براعتك في تحديد مسار الكرات بعد التصادم. لن تستطيع إلى ذلك سبيلا. في الحقيقة هذه البلياردو المصغرة إلى حجم الذرات موجودة لدينا في المختبرات وهي (مسرعات الجسيمات).

> **قد تنخدع كل نسخة بأنّ عالمها هو الوحيد الحقيقي، وليس الآخر إلا منافساً محتملاً غير محقق. لكن في الواقع توجد جميع العوالم بشكل متوازٍ**

كل ما علينا فعله هو تسريع حزمة من الإلكترونات أو الفوتونات لتصطدم بذرات معينة في حالة سكون. الآن بعدما يتصادم الإلكترون بأحد الجسيمات سوف يتشتت، لا نملك أي فكرة على الإطلاق في أي جهة سيتشتت؛ يمينا أم يسارا؟! حسب رياضيات ميكانيكا الكم، تعطي المعادلات احتمالات متساوية للتشتت في كل الجهات، لكنها لا تعطي في أي اتجاه بالضبط سيتجه الإلكترون بعد التصادم. لكن بعد وقوع حدث التصادم (الذي لا نراه أبداً) نستطيع أن نرصد أي اتجاه اتخذه الإلكترون. أي بعد أن تتم التجربة.

من سبل التفكير في هذا الأمر القول بأنّ الإلكترون قبل أن يرتطم بالجسم الساكن كان هناك عالم واحد له مستقبلان محتملان! أحدهما يتحرك فيه الإلكترون إلى اليمين والآخر يتحرك فيه الإلكترون إلى اليسار. لكن بعد وقوع التصادم سيكون على الطبيعة أن تحسم أمرها، إما يمين أو يسار!

في التفسير الأصلي لميكانيكا الكم الذي قدمه نيلز بور في ثلاثينيات القرن الماضي، كان فعل الملاحظة هو من يحدد يمينا أو يسارا. يعني قبل أن تقوم أنت بالرصد لا معنى للحديث عن شكل التصادم (كل الاحتمالات موجودة يمينا ويسارا وغيرها). هل تدرك مدى جنون هذا الكلام؟ أي شيء قبل أن يقع في وعيك لا يكون على حالة محددة!! يكون متراكب بكل الاحتمالات بشكل غامض، حتى تقوم برصده (تفاعل مع ذرات عينك) حتى يتخذ شكلا معين! لقد قال آينشتاين ذات مرة، مستاء من هذا التفسير: هل القمر يكون غير موجوداً عندما لا أراه؟!، ربما بطريقة ما رأى عدد قليل من الفيزيائيين في زمن بور الدور الذي يلعبه الوعي في تشكيل هذا العالم من حولنا. في خمسينيات القرن الماضي طبق هوفت ايفيرت تفسير بور على الكون كله.

عندما يصطدم الإلكترون بالجسم فإنّ احتمال اتجاهه إلى اليمين واحتمال اتجاهه إلى اليسار سيقعان بنفس الدرجة! عندما يصطدم الإلكترون بالجسم ينقسم الكون إلى نسختين: واحدة يتحرك فيها الإلكترون إلى اليمين والأُخرى إلى اليسار.

يوسف البناي
فيزيائي نظري من الكويت

يمكننا التعبير عن ذلك بقولنا أنّه قبل حدوث التصادم كانت هناك نسختان متطابقتان من الكون، لم تفترق أحداهما عن الأُخرى إلا مع حدوث التصادم. الآن أنت المراقب يجب أن تنقسم الى نسختين متطابقتين أيضاً؛ واحدة منك ترى الإلكترون يذهب يسار ونسختك الأُخرى تراه يذهب يمين! قد تنخدع كل نسخة بأنّ عالمها هو الوحيد الحقيقي، وليس الآخر إلا منافساً محتملاً غير محقق. لكن في الواقع توجد جميع العوالم بشكل متوازٍ، وهنا يأتي اسم النظرية (الأكوان المتوازية) لميكانيكا الكم. طبعاً أنا هنا وضعت مثال يمين ويسار فقط، لكن الاحتمالات لا نهائية، إذن مع كل حدث ينشق وعيك إلى عدد لا نهائي من الاحتمالات، كل وعي في كون موازٍ!

رغم الغرابة الشديدة لهذا التفسير، فإنّ فيزيائيين كثيرين يقبلونه اليوم. خصوصا أولئك الذين يعملون على نظريات التوحيد الأساسية من مثل نظرية الأوتار والنظرية M وغيرها. هذا التفسير أيضا محبب عند تطبيق ميكانيكا الكم على علم الكونيات.

أوراق من مذكرة مجنون

ناصر الغساني
شاعر عُماني

الورقةُ الأولى:

أُناجيكَ
في روحي سؤالٌ وحيرَةٌ
وذَنْبٌ ووجدٌ وانْكِسَارٌ ووحْشَةُ

تَغَرَّبْتُ أَدْري
كُنْتُ في الريحِ مُوغِلاً
وما سَطَعَتْ
من أُفْقِ تيهيَ نَجْمَةُ

ولي امرأةٌ تَنْشَالُ كالماءِ
إنْ أنا جَدَبْتُ
ولَمْ تَهْمِ من الصبرِ غَيْمَةُ

بلا قَبَسٍ سَامَرْتُ رؤيايَ
شَاطَحًا عن الكُلِّ
حولَ العُمْرِ تَنْدَاحُ عَتْمَةُ

بهامِشِ هذا الكونِ
ما زلتُ كوكبًا
أَدُورُ
وما لاحتْ بغَيْبِي مَجَرَّةُ

الورقةُ الثانية:

ومُذْ غِبْتُ في طُورِي
وروحي وحِيدَةٌ
كَنَهْرٍ
على قَفْرِ السؤالِ تَسِيلُ

هُنَاكَ على نجواكَ
قَدْ عِشْتُ هائِمًا
يُصَاحِبُنِي
في رِحْلَةِ الشَّكِّ تَأْوِيلُ
وحيدًا

وحيدًا
في غياباتِ عُزْلتي
وقلبي
بأَحْزانِ الوجودِ
ثَقِيلُ
أُطَارِدُ في المعنى سَرَابًا
وكُلَّمَا لَمَحْتُ هُدَىً
دَرْبِي أَرَاهُ يَطُولُ

على حَافَّةِ الأيامِ
كالنَّخْلِ واقِفًا
وصبري
لكُلِّ العالمينَ
رَسُولُ

الورقةُ الثالثة:

عَرَفْتُكَ
مُذْ قالوا: لقَدْ ضاعَ عَقْلُهُ
وها صَارَ مَجْنُونًا
يَجُوبُ الشَّوارِعَا

ولَمْ يُدْرِكُوا
أَنِّي بِعِشْقِكَ مُصْطَلٍ
ومِن خَشْيَةٍ يا ربُّ
أُجْرِي المَدَامِعَا

خَلَوْتُ إلى مِحْرابِ ذاتي
مُنَاجِيًا
ولَمْ أَنْتَبِذْ
كالنَّاسكينَ الصَوامِعَا

أُرَتِّلُ في دُنْيَا من الوهْمِ
سِيرَتي
وما عَثَرَتْ روحي أَسَىً
أو مَواجِعَا
فَدَعْنِي بهذا العِشْقِ
صَبًّا
وفَاقِدًا كَمَا قِيلَ عنِّي العَقْلَ
دَعْنِيَ ضَائِعَا

الورقةُ الرابعة:

أنا العارفُ المَسْكُونُ
بالوجدِ والرؤى
أَسِيرٌ على شكٍّ
بمجهولِ إنْسَانِي

كَسَرْتُ المَرَايَا
لا انْعِكَاسٌ لغُرْبَتِي
وَلِـــيٌّ أنا
والحُبُّ ديني وقُرْآنِي

خَلَعْتُكَ يا ظِلَّ الأساطيرِ
لَمْ أَعُدْ
أُرِيدُ خلاصًا
غيرَ شِعْرِي وأَحْزَاني

كَمَنْ لَمْ يَجِدْ
في الفُلْكِ يا نوحُ مَقْعَدًا
غَرِيقًا بنفسي
لا سَبِيلٌ لشُطْآني

على قَلَقٍ
والريحُ تَحْتَي
مُسَافِرٌ إلى الغَيبِ
زادُ العُمْرِ شَكِّي وإيمَاني

ومضات من رؤى العارف باللّه
أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي

(1869 - 1934م)

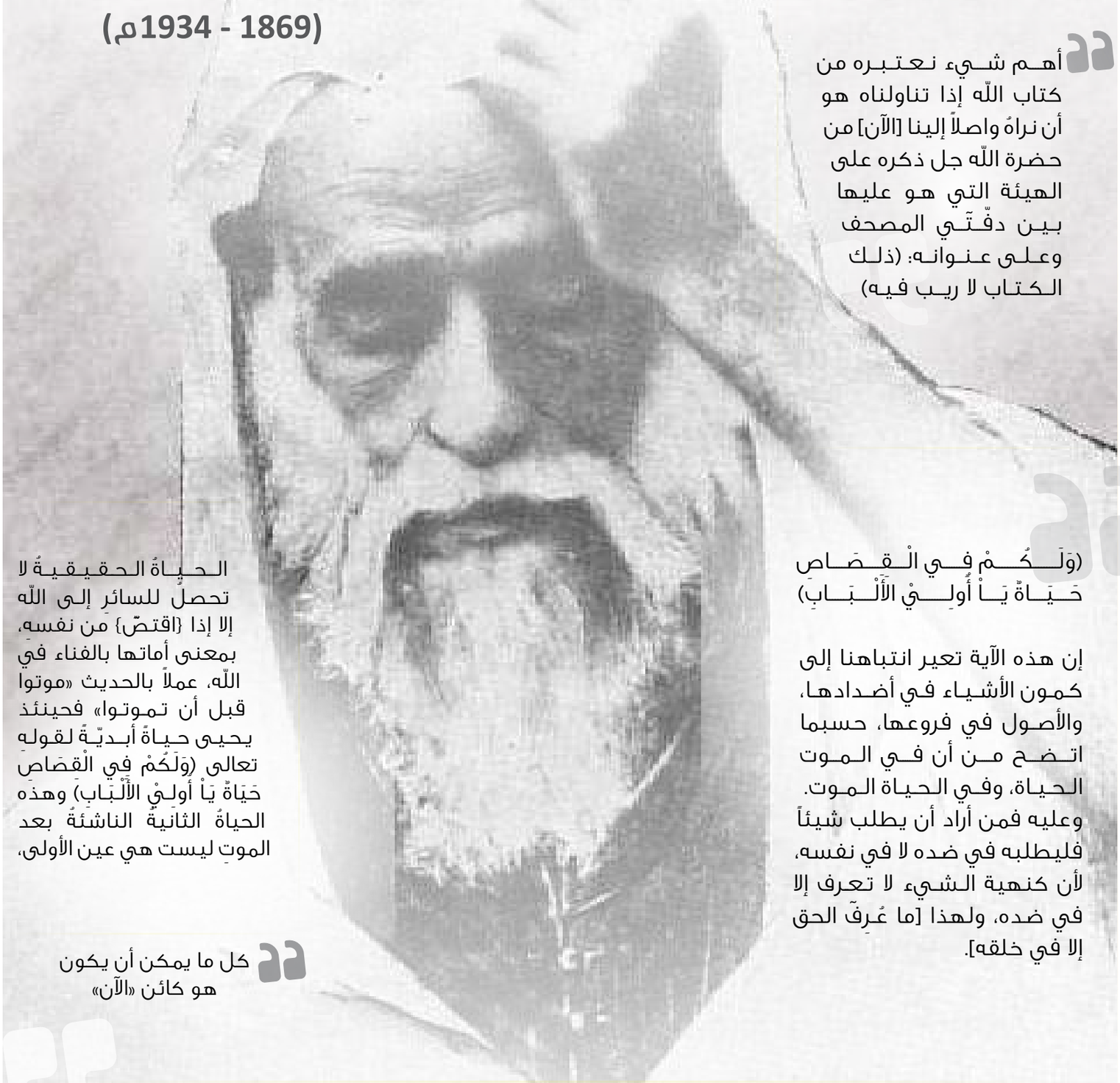

> أهم شيء نعتبره من كتاب اللّه إذا تناولناه هو أن نراهُ واصلاً إلينا [الآن] من حضرة اللّه جل ذكره على الهيئة التي هو عليها بين دفّتي المصحف وعلى عنوانه: (ذلك الكتاب لا ريب فيه)

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ)

إن هذه الآية تعير انتباهنا إلى كمون الأشياء في أضدادها، والأصول في فروعها، حسبما اتضح من أن في الموت الحياة، وفي الحياة الموت. وعليه فمن أراد أن يطلب شيئاً فليطلبه في ضده لا في نفسه، لأن كنهية الشيء لا تعرف إلا في ضده، ولهذا [ما عُرِفَ الحق إلا في خلقه].

الحياةُ الحقيقيةُ لا تحصل للسائر إلى اللّه إلا إذا {اقتصّ} من نفسه، بمعنى أماتها بالفناء في اللّه، عملاً بالحديث «موتوا قبل أن تموتوا» فحينئذ يحيى حياةً أبديّةً لقوله تعالى (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ) وهذه الحياةُ الثانيةُ الناشئةُ بعد الموتِ ليست هي عين الأولى،

> كل ما يمكن أن يكون هو كائن «الآن»

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

يلزمنا في الآية أن نحترم سكان العالم تماماً إلى أن نصير نرى ما من شيء في الوجود إلا وهو على شيء، وإن كان في الشريعة مخالفاً فهو في الحقيقة طائع، لأن المخالفة من حيث الرضى، هي طاعةٌ من حيث الإرادة..

طوق الحمامة المفقود

إنتاج عام: 1991

يعد الفيلم ثاني ثلاثية الصحراء للمخرج ناصر خمير وقد اختير من ضمن قائمة أفضل ١٠٠ فيلم عربي في القرن العشرين، يظهر الفيلم بكامل عنفوانه متكاملا مع مقومات المشهد السمعية والبصرية إلى جانب قوة النص الذي يفرض إيقاعه على تفاصيل المكان وهو يعبر عن حالة المشهد الأندلسي بكل عمقه.

يقترح الفيلم أسئلة شتّى حول الحب ورحلته الوجودية منبعثا من وحي كتاب «طوق الحمامة» للفقيه الأندلسي الشهير ابن حزم، إذ يضعك وسط أزقة الأندلس في القرن الحادي عشر إبان ازدهار الحضارة الإسلامية، تدفعك الأحداث لخوض المغامرة رفقة الشاب حسن، وهو يبحث عن أسماء الحب فى الكتب، ويفتش عن عوالم تستلقي بين الوعي والخيال.